دراسة العدد:

حرية التفكير والتعبير في القرآن الكريم بين الحق والتطرف

حرية التفكير والتعبير في القرآن الكريم
بين الحق والتطرف

الأستاذ نور الدين محمدي
معهد القراءات– الجزائر

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين ؛ أما بعد :

لقد خلق الله الإنسان بلسان ناطق متكلم، وجعل له في كلامه تنوعا في الألفاظ، وغزارة في المعاني، ولأن الإنسان مفطور على منافسة أخيه الإنسان ؛ فإنه يحب دائما التعبير عن مكنوناته بكل حرية تصل به أحيانا إلى اللامبالاة بالنتائج المترتبة عن كلامه وتعبيره، والقرآن الكريم سجلٌّ حافل بتعبيرات وطرق تفكير البشر، وفي مواقف شتى ومراحل تاريخية مختلفة سجَّل القرآن الكريم بوصف فريد درجة الوعي وطريقة التفكير التي تميز بها البشر عبر تلك المراحل .

فنجد في القرآن الكريم رغبة الإنسان الجامحة في التعبير وإبداء الرأي ؛ تجعله يخرج عن الحدِّ المقبول إلى الموقفِ المتطرف، ونجد في المقابل أن القرآن الكريم قد سجل أساليب التعبير وطرائق التفكير حرفيا ونقلها بكل أمانة ؛ رغم حساسيتها أحيانا، وسذاجتها أحيانا أخرى، وربما كانت خطيرة ومتطرفة في كثير من المواقف.

وبإمكاننا تحديد طرائق التفكير وأساليب التعبير المتطرف التي سجَّلها القرآن عن البشر عبر التاريخ، والتي أوضحت عدم ممانعة القرآن الكريم في إعطاء حرية إبداء الرأي للناس على أن يتحمَّلوا تبعات رأيهم ودرجة خطورته، وسنعلم أيضا كيف تعامل القرآن الكريم مع تلك الآراء ؛ من خلال التفصيل الآتي :

1 . استصغار حق الآخر في منظومة الحكم:

وقد ثبت هذا النوع من الرأي الحر في قضية قديمة عكست حقيقة العقلية البشرية اتجاه منظومة الحكم، ورغم خطورتها على الرأي العام إلا أن القرآن الكريم قد فسح لها المجال للظهور بكل عنفوانها ؛ بوصفها ثقافة متجددة ومتجذرة في البشر لا يمكنهم التخلص منها لوجود التفكير التنافسي لدى الإنسان، وهي تصنع التوتر الاجتماعي داخل

الدول والأمم عندما لا تجد من يهذبها ، وقد أظهر القرآن الكريم هذا النوع من الرأي في قصة طالوت الذي اختاره الله ملكا على قومه من بني إسرائيل ؛ فرفضوا بادئ الأمر أن يكون ملكا عليهم، وأبدوا رأيهم فيه بكل حرية وديمقراطية ، وقد فرضه الله عليهم لسببين :

الأول : أن حكمهم عليه كان حكما سطحيا يتجاوزه العقل ويفتقر إلى الوعي ؛ فقد رفضوه لقلة ماله ، وليس لسبب قادح في أهليته .

الثاني : أنهم تجاهلوا الحال الذي يمرون به، وهو الخطر القادم من جالوت وجيشه الذي يحتاج إلى قوة في الجسم وبسطة في العلم، وليس إلى كثرة المال – وإن كان المال هنا له نصيب وافر من القوة في مثل هذه الأحوال –؛ قال تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، [260] وبالرغم من خطورة هذا النوع من إبداء الرأي بهذه الصورة الناطقة بالحرية المطلقة والمتطرفة في آن واحد ، والتي لو كانت في عصرنا لترتبت عليها أزمة سياسية خانقة ؛ إلا أن القرآن الكريم أظهرها بكل صفاء وأمانة لمحاكمتها بكل عقل وحزم بعيدا عن التوتر

260)- سورة البقرة، الآية : 247

الصانع للاضطراب، وقد عالجها نبي ذاك الزمان بالحكمة نفسها. [261]

معالجة القرآن لمشاكل منظومة الحكم	
التركيز على الصفات المؤهلة	التنبيه على خطورة المرحلة

2 . المطالبة النرجسية [262] :

لم يتعرض القرآن الكريم لتفكير المطالبة بنقد أو منع ؛ لكون المطالبة مشروعة عقلا وشرعا ؛ فمن حق البشر المطالبة بحقوقهم التي لا تصفو الحياة إلا بحمايتها، ولكنه انتقد المطالبة النرجسية لخروجها عن حد العقل والشرع ، واعتبرها ضربا من المستحيل، ونجد في القرآن الرد العنيف لدى أغلب المطالب النرجسية ؛ فمن ذلك قوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [263]، والرأي المعبر عن المطالبة هنا هو رأي يتضمن

261)- هو شمويل (عليه السلام)، وقد ذكر أبو حيان قصته الكاملة مع قومه ؛ ينظر : البحر المحيط ؛ لأبي حيان الأندلسي ؛ تحقيق : عادل أحمد عبد المقصود وآخرون ؛ دار الكتب العلمية ؛ بيروت ؛ الطبعة الأولى ؛ 1413 هـ ؛ ج 2 / 263 .

262)- جاء في معجم مصطلحات الرابطة الأمريكية للتحليل النفسي اعتماد التعريف الآتي : النرجسية : تمركز الاهتمام السايكولوجي على الأنا ؛ ينظر : النرجسية دراسة نفسية ؛ بيلاغرانبرغر ؛ منشورات وزارة الثقافة ؛ دمشق ؛ 2000 ؛ ص : 10 .

263)- سورة البقرة ؛ الآية : 55 .

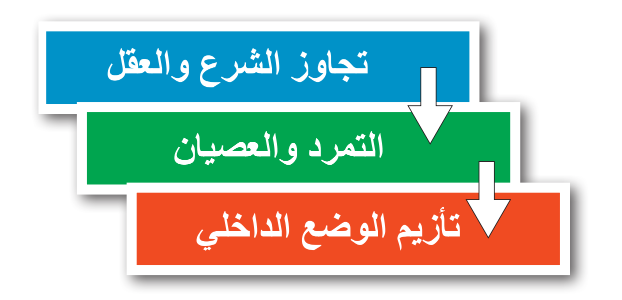
تمردا وعصيانا، ورغم خطورته فإن القرآن أوضحه بكل أمانة ولم يُـــخْفه، وبيّن في المقابل طريقة الرد على مطلبهم وهو الأخذ بالعذاب ؛ لأن تلك النرجسية لا علاج لها بحل توافقي ؛ لاستحالة أن يكون الإيمان برسالة موسى مساوَماً فيه .

ومنها أيضا قوله تعالى عن بني إسرائيل﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [264]؛ فلما كانت المطالبة هنا أخف من الأولى كان العذاب أخف من العذاب الأول، وهي نرجسية مذمومة في هذه الحالة كما ذمت في الأولى، ولكن القرآن الكريم نقل الرأي المعبر عنها بوصفه رأيا حرا بكل أمانة .

والمطالب المعبر عنها بالآراء النرجسية كثيرة في القرآن ؛ يطول حصرها في هذا الموضع ، ويكفي هنا بيان بعدها عن الحق وازدرائها له وتطرفها في الوسيلة والمقصد، وكونها سببا في تأزيم الأمور وتعقيدها.

264)- سورة البقرة ؛ الآية : 61 .

مخاطر المطالب النرجسية



3 . الموقف البراغماتي :

الموقف البراغماتي من المواقف المناهضة لدعوة الأنبياء والرسل، وهو موقف له مبرراته الاجتماعية؛ غير أنه تجاوز الحدَّ المعقول في مواقف عديدة؛ حيث تجرأ أصحابه على دعوة الأنبياء، وبلغت بهم الجرأة أن تعرضوا للذات الإلهية بالإساءة والاعتداء.

والقرآن الكريم لم يُـــخْف هذا التفكير البراغماتي رغم تطرفه ؛ بل عرض آراءه للمحاكمة التاريخية بكل شفافية وصفاء، ومنه : موقف اليهود من رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) حين رفضوا الاستماع إليها ، وأعلنوا عدم قدرتهم على استيعابها؛ قال تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [265] [266]، وهي براغماتية واضحة جعلت الخالق يصف حقيقة

265)- غلْف جمع أغلَف ، وهو كل شيء جعلته في غلاف ؛ أي مستورة عن الفهم والتمييز ، ومن قرأ (غلُف) بضم اللام فالمعنى قلوبنا أوعية للعلم فكيف تجيئنا بما ليس عندنا ؟ ؛ ينظر : تفسير البحر المحيط ؛ لأبي حيان الأندلسي ؛ ج 1 / 469 - 470

266)- سورة البقرة ؛ الآية : 88 .

الأمر بوصف كاشف لدرجة الوعي والاستيعاب لدى بني إسرائيل ؛ فقال سبحانه : ﴿بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾ (267) .

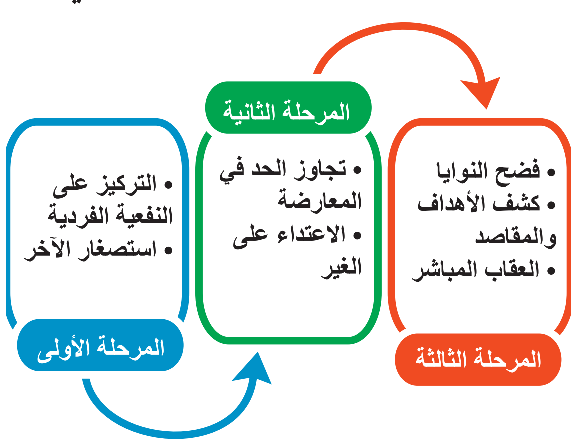
وقولهم السابق يفسر أيضا التدني البراغماتي لديهم حين أرادوا أن يلبسوا رداء البراغماتية ؛ فأبان الخالق بعدهم عنها وعدم فهمهم لها ، ولأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم سلفا ، ولعنهم بسبب كفرهم المتواصل .

والآراء المعبرة عن الموقف البراغماتي كثيرة جدا في القرآن الكريم ، ومنها قول اليهود أيضا: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ (268)، وهو موقف باراغماتي من دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) جعلهم يعتدون على الذات الإلهية ؛ بسبب أن الله تعالى اختار نبي آخر الزمان من العرب وليس من اليهود، واستخدم أصحاب هذا الموقف الرأي الحر للتعبير عنه فجانبوا الصواب في الاستعمال؛ لأن الرأي الحر لا علاقة له بالتطرف، وقد حُفِظَ تطرفهم في القرآن الكريم ليشهد التاريخ على دناءتهم وخسة أهدافهم.

(267)- سورة البقرة ؛ الآية : 88 .

(268)- سورة المائدة ؛ الآية : 64

معالجة القرآن للموقف البراغماتي



4 . الرأي الأخرص :

الرأي الأخرص هو رأي ينبئ عن سفاهة أصحابه ، ولكن نفوذهم وقوتهم سمحت لهم بمواجهة الحق الذي لا مرية فيه ؛ إلا أن مواجهتهم للحق بذاك التفكير المتطرف المعلن كانت بطريقة خرصاء لا تستند إلى أي نصيب من عقل أو فطرة سليمة .

والقرآن الكريم في عرضه لتلك الآراء الخرصاء يكشف عجز من ردَّ رسالة الإسلام عبر التاريخ عن الإتيان ببديل مثله في الحجة أو أقوى منه ، ولكن ذلك لم يحدث البتة، ومن تلك الآراء الخرصاء قول النمرود في محاجته لإبراهيم عليه السلام : ﴿أنا أحي وأميت ﴾ (269)، ويعدُّ هذا موقفا غريبا ؛ لعجز الإنسان عن الإحياء والإماتة ، وعدُّ الرأي هنا رأياً أخرص ؛ لأنه أعطى المثال الواضح لقصر فهم النمرود عن حقيقة الحياة والموت .

(269)- سورة البقرة ؛ الآية : 258

ومن الآراء الخرصاء قول المشركين : ﴿لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ [270] ؛ فاعتبر القرآن رأيهم هذا رأيا أخرص ؛ لاستحالة أن يكون لهم علم سابق بذلك، وأن رأيهم لا يزيد عن كونه ظنا منهم فقط ؛ قال تعالى : ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ [271]، وفي القرآن الكثير من الآراء الخرصاء التي عرضها القرآن في سياق إعطاء حق الكلام للمخالفين ثم الحكم على آرائهم كيفما بدت .

أسباب الرأي الاستفزازي			
المكر	النفوذ والقوة	السفاهة	الجهل

5 . الرأي الاستفزازي :

وهو كالرأي الأخرص ؛ إلا أنه تضمن مكرا مخفيا عن تدبير في كثير من الأحيان ، كقول بني إسرائيل عن دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) : ﴿سمعنا وعصينا﴾ [272]، وهو استفزاز واضح كان المقصد منه استثارة المسلمين، وزرع القلق فيهم ؛ هروبا من المحاجة التي كانت دائما لصالح الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومنه قول المشركين عن القرآن الكريم: ﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [273]، وهو رأي في غاية الاستفزاز والعناد، ومع ذلك نقله القرآن عنهم بأمانة و لم يزد عليه شيئا، وإنما اكتفى بعدم الاكتراث لهم احتراما لرسول الله الذي يعيش بين أظهرهم ؛ قال تعالى : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [274] .

ولنا أن نتأمل كيف عالج القرآن الكريم الآراء الاستفزازية - رغم تطرفها الجامح - من خلال هذه الآيات وغيرها ؛ حيث نلحظ في وضوح رغبة القرآن في عدولهم عن الاستفزاز إلى قول أقوم منه؛ قال تعالى : ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم﴾ [275] ؛ فأعطى لهم حرية الكلام و لم يبخل عليهم بالتوجيه الصحيح ؛ فأين نحن اليوم من هذه الأخلاق في العمل الديمقراطي في عصرنا .

أسباب صدور الرأي الأخرص		
النفوذ والقوة	السفاهة	الجهل

6 . إعلان الحق :

وهو من آراء أهل الحق ؛ فهم الذين يعلنونه بكل صراحة، وهو إعلان متعلق بالنصرة المطلقة للقضايا العادلة دون شعور بالضعف والنقص، وأهل

270)- سورة الأنعام ؛ الآية : 148

271)- سورة الأنعام ؛ الآية السابقة .

272)- سورة النساء ؛ الآية : 46 .

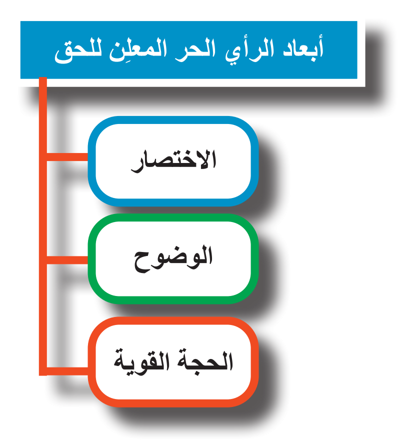
273)- سورة الأنفال ؛ الآية : 31 .

274)- سورة الأنفال ؛ الآية : 33 .

275)- سورة النساء ؛ الآية : 46 .

الحق عندما يناضلون لأجل القضايا العادلة يكونون في غاية الهدوء النفسي والتوازن العاطفي ؛ فما دام الحق معهم فالقلق منهم بعيد والاضطراب منهم أبعد، ولا يعرف التطرف إليهم سبيلا، وطريقة تفكيرهم تتميز بالمنطق الذي يصبغ عليها صبغة الحجة الدامغة ، ومن الآراء التي أعلنت الحق دون تحفظ قوله تعالى عن الحواريين حينما اشتد الأمر على المسيح (عليه السلام) : ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ (276)، ومنها ما كان يأخذه الأنبياء والرسل من أتباعهم من ضرورة الإيمان برسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إن هم عايشوا بعثته ؛ قال تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ (277).

وإعلان الحق غالبا ما يكون إعلانا مفتقرا إلى كثرة الأنصار ؛ فأنصار الحق قلة دائما ، ولكن الرأي المعلن ينبئ عن قوة الوعي لدى أنصار الحق ، وأسلوبهم في التفكير يعكس بوضوح صفاء عقولهم وصدق ضمائرهم ؛ كما أن آراءهم دائما ما تكون مختصرة وموجزة وذات بلاغة جذابة ، وهم بذلك يصنعون الرأي الحر بكل أبعاده في الخطاب المباشر؛ من الوضوح، والاختصار، والمعاني التي يؤديها، ورغم ذلك فإن القرآن الكريم منع المؤمنين من أي استعمال للتطرف ضمن سياق إعلان الحق قال تعالى : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ (278) .



7 . إعلان التذمر :

ونجد هذا النوع من الآراء بكثرة في بعض أتباع الأنبياء الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم فهم يتذمرون كثيرا وينشرون القلق لدى بقية الأتباع، وإعلان التذمر صفة عامة في الشعوب عموما، وغالب المشاكل السياسية تتفاقم بسبب إعطاء التذمر أكثر مما يستحق من المعالجة ؛ إذ تعتبر بعض البلدان التذمر إعلانا للعصيان المدني فتواجهه بالقمع، وهو لا يحتاج إلا إلى المعالجة النفسية - حسب ما

(276)- سورة آل عمران ؛ الآية : 52 .

(277)- سورة آل عمران ؛ الآية : 81.

(278)- سورة النحل ؛ الآية : 125 .

نراه ، والله أعلم -، ومن الآراء التي أعلنت التذمر في القرآن الكريم ما حدث يوم أحد من الابتلاء للمؤمنين ؛ حيث كان الضعاف يتذمرون من الحال التي كان عليها النبي وأصحابه ، و لم يخف القرآن تذمرهم الذي أعلنوه ؛ بل أوضحه في سياقه من غير تبديل فيه ، ثم عالجه معالجة نفسية ردت الحقيقة إلى نصابها ؛ قال تعالى : ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ (279) ، وفي الغزوة نفسها تذمر بعض ممن كان في الجيش فأساءوا الظن تطرفا وغلوا ، وقد سجل القرآن الكريم سوء ظنهم بالله تعالى ونقل تذمرهم ؛ فقال تعالى : ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من الشيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ (280)، وإذ يعرض القرآن إعلان التذمر بصورته الراديكالية ؛ فإنه اعتبر التذمر مشكلة أهله وليست مشكلة الحق، وعلى الأنظمة الإسلامية أن تفرق بين نوعين من التذمر :

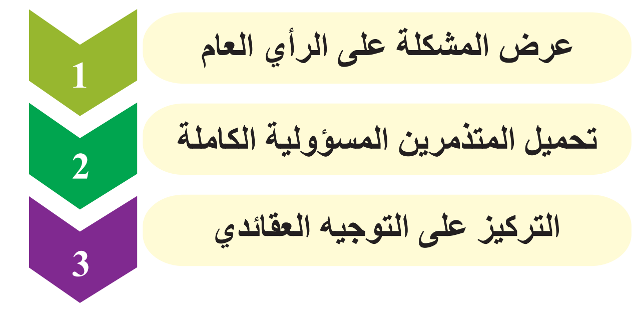
الأول : التذمر الشعبي من ضعف التسيير العمومي، وهو تذمرٌ حق ؛ ينبغي معالجته بالمتابعة المستمرة للأداء المؤسساتي .

الثاني : التذمر الناتج عن علاقة الأحزاب المعارضة بالسلطة الحاكمة، وهذا في الغالب من التذمر الذي شرحناه في الآيات السابقة لوضوح مقاصده .

آثار إعلان التذمر في المجتمع



معالجة القرآن للإعلان التذمر



8. إعلان المانعة :

إعلان المانعة أشد خطرا من إعلان التذمر، وقد أحاط القرآن الكريم بكل الآراء التي سجلت هنا فأبانها على خطورتها وتطرفها ؛ فهي آراء توجيهية تمهِّد للمعارضة المتآمرة بكل ما فيها من تخطيط ومكر وخديعة، ومع ذلك لم يترك القرآن الفرصة لأحد فيقول : إن القرآن يمنع الرأي الحر؛ فأبان عن هذه الآراء في مساقاتها، وتركها تبدو في

(279)- سورة آل عمران ؛ الآية : 165 .

(280)- سورة آل عمران ؛ الآية : 165 .

صور من الممانعة الفاقدة للتبرير، والتي تدل على نقص الإيمان والشجاعة ؛ مع مبالغتها في الاهتمام بمصالحها الشخصية المفسدة للمصالح العامة، وإذا أمعنا النظر في موقف القرآن الكريم من أصحاب الممانعة ؛ فإننا نجد أن رأي الممانعة لم يواجه بالقمع والسجن وغير ذلك من الوسائل المسكتة ؛ بل واجهه بوصف قادح للممانعتهم، ومن الآراء المعبرة عن تفكير الممانعة قول المنسحبين من غزوة أحد: ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ (281)، وقولهم عن الشهداء في الغزوة نفسها: ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾ (282)، وقول المتخلفين عن غزوة العسرة : ﴿لا تنفروا في الحر﴾ (283).

9 . إعلان التكذيب :

وقد جاء في القرآن في معرض الحديث عن دعوات الأنبياء لما واجهتهم أقوامهم بالرأي المعبر عن التكذيب الصريح ؛ مستخدمين فيه ألفاظا تسيء إلى الأنبياء والرسل ؛ كقول قوم نوح لنوح (عليه السلام) : ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾(284)، وكان رد النبي في غاية الرحمة بهم : ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين﴾ (285).

281)- سورة آل عمران ؛ الآية : 167.

282)- سورة آل عمران ؛ الآية : 168.

283)- سورة التوبة ؛ الآية : 81.

284)- سورة الأعراف ؛ الآية : 60 .

285)- سورة الأعراف ؛ الآية : 61 .

وكقول قوم هود لهود (عليه السلام) : ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ (286)، وكان الرد أيضا في غاية الرحمة ؛ قال تعالى : ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾(287)، والتعبير عن التكذيب رغم كونه تعبيرا يجانب السلوك الأخلاقي لتطرفه الواضح ؛ إلا أن القرآن قد سجله عليهم ليحاكمهم التاريخ بعد ذلك بوصفه شاهدا على رأيهم.

10 . إعلان الخذلان :

وهو أيضا من اتجاهات الممانعة، ولكنه يصدر عن المستضعفين في العموم، وربما صدر عن أصحاب المصالح الشخصية الذين يهولهم الحال العسير الذي تمر به الأمة في مرحلة من المراحل، وإعلان الخذلان من التعبير المتطرف الخطير المناهض لرغبة الأمة في التطور والتقدم ؛ فقد أراد الله تعالى الحياة الرغيدة لبني إسرائيل عندما أمرهم بدخول القرية المقدسة، ولكنهم أعلنوا الخذلان ؛ فكانت حياتهم عذابا وتيها في الأرض، وتخلفا دام لعشرات السنين، وقد سجل القرآن تفكير المتخاذلين، وأبان عن رأيهم في اللحظة الحاسمة التي لا تقبل التأخر والتماطل ؛ فإما الاستجابة وإما الخذلان ؛ فاختاروا الموقف الثاني، وقالوا : ﴿ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب

286)- سورة الأعراف ؛ الآية : 66 .

287)- سورة الأعراف ؛ الآية : 67 .

أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ [288] ؛ فكان هذا الرأي المعلن سببا في ضياعهم .

والتفكير المتخاذل موجود في زماننا حتى في العمل الديمقراطي للأسف ؛ حيث أصبحنا نرى المواقف المختلفة للأحزاب المعتمدة تصنع التخاذل حتى في تصريحاتها التي من المفترض أن تكون متحفظة وملتزمة بالخلق الكريم في الأداء السياسي.

وقد عالج القرآن الرأي المتخاذل في هذه الأمة علاجا براغماتيا، وكأنه يرد على المتخاذلين بالرد الذي تفهمه عقولهم ؛ قال تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ [289] ؛ فالندم المستشعر للإحباط لضياع الفرصة كاف في ردع المتخاذلين، والرد البراغماتي هنا يدعو للتأمل كثيرا.

معالجة القرآن لإعلان الخذلان

• انعدام أسباب الممانعة • رغبتهم في التمرد	إظهار فقدان التبرير
• نقص الإيمان • قلة الشجاعة	إظهار عدم الانسجام مع المجتمع
• النظر في المصالح الشخصية • عدم الاكتراث للمصالح العامة	فضح الرغبات النفعية

288)- سورة المائدة ؛ الآية : 24 .

289)- سورة المائدة ؛ الآية : 52 .

11 . إعلان التثبيط :

وهو داخل في سياق الممانعة ونتيجة من نتائجها، وقد أبانه القرآن بيانا دراماتيكيا استخدم فيه أسلوب الجماعة من الناس والمقصود بهم شخص مفرد، وذلك في قوله تعالى : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [290] ؛ فلفظ الناس الأول المراد به واحد، وهو نعيم ابن مسعود الأشجعي أو أعرابي من خزاعة، واللفظ الثاني المراد به واحد، وهو أبو سفيان [291]، ولكن الرأي المعلن هنا أراد أصحابه تثبيط العزائم، وتخويف النفوس، وإثارة البلبلة والضعف في صفوف المؤمنين؛ فاستخدم القرآن لفظ الناس لأمرين :

الأول : بيان أهداف الرأي المعلن ، وفضح مقاصد أصحابه.

الثاني : بيان حال المؤمنين عند التخويف الجماعي ؛ ليتبين حالهم عند التخويف الفردي ابتداء.

والرأي المثبط في زماننا يتخذ أشكالا متنوعة، ومشربة بالكثير من الأفكار المتطرفة التي تزرع الشك والريب في صفوف المجتمعات الإسلامية، ونحن نرى بوضوح كيف صار الإعلام المعارض

290)- سورة آل عمران ؛ الآية : 173 .

291)- ينظر : البحر المحيط ؛ لأبي حيان ؛ ج 3 / 123 .

يثبط عزائم الناس على اختلاف تخصصاتهم، ويزرع فيهم عقلية التحفظ والشك، ويحاول بشتى الوسائل دعوتهم للتفكير في البديل لمستقبل بلدانهم، وهو تثبيط خطير على حاضر الأمة ومستقبلها ؛ لاحتمال إصابتها بالانفصام المفاجئ في أي لحظة تسوء فيها الأحوال ؛ فتضعف مناعتها، وتقبل بأي بديل يفرض عليها بعد ذلك، وخير سبيل لمقاومة التفكير المثبط هو الاستجابة للعلاج نفسه الذي دعا إليه القرآن في الموقف السابق ؛ قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [292]، ولا شك أن ذهاب الخوف كفيل بالقدرة على مقاومة التثبيط، وتوهين الآراء المعلنة فيه، والتي يظن أصحابها أنها من حرية التعبير.

أهداف إعلان التثبيط

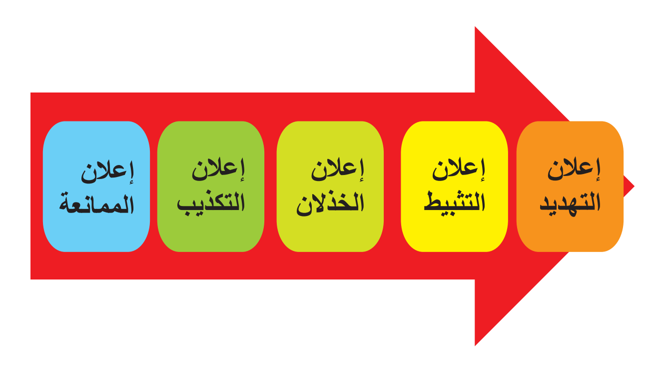


292)- سورة آل عمران ؛ الآية : 175 .

12 . إعلان التهديد :

وهو مرحلة تتجاوز الحدود المعقولة، ويضع أصحابه في موضع المراقبة، وهو خارج عن مجال العمل المتكافئ ؛ لأنه يظهر لدى الخصم المهدِّد قوة أخرى سيستخدمها في الرد على فشله، وقد أبان القرآن الكريم عن هذا النوع من التعبير في صور شتى كانت نهايتها مؤسفة في غالب الأحيان؛ كقوله تعالى عن ابن آدم : ﴿قال لأقتلنك﴾ [293]، وقوله عن قوم شعيب : ﴿لنخرجنك يا شعيب﴾[294]، وقوله تعالى عن فرعون : ﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ [295] .

مراحل إعلان الممانعة



13 . استراتيجية التمويه :

وهي استراتيجية خطيرة على الأمة ؛ يريد أصحابها خداع الأمة والتمويه عليها حتى ينالوا أفضل النتيجتين، وهم في ذلك أعداء حقيقيون يظهرون

293)- سورة المائدة ؛ الآية : 27.

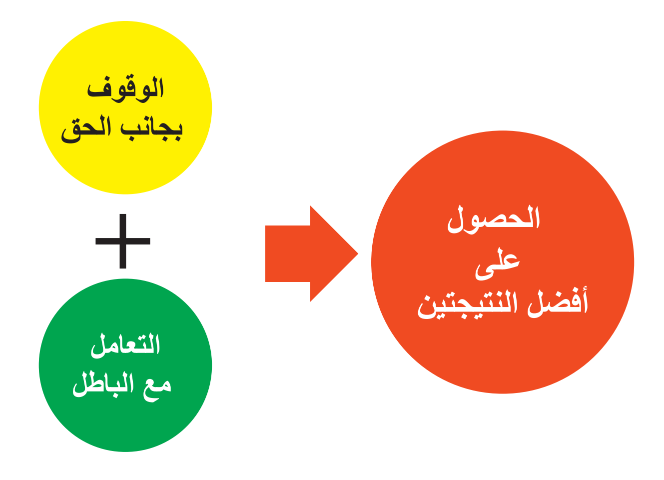
294)- سورة الأعراف ؛ الآية : 88 .

295)- سورة طه ؛ الآية : 71

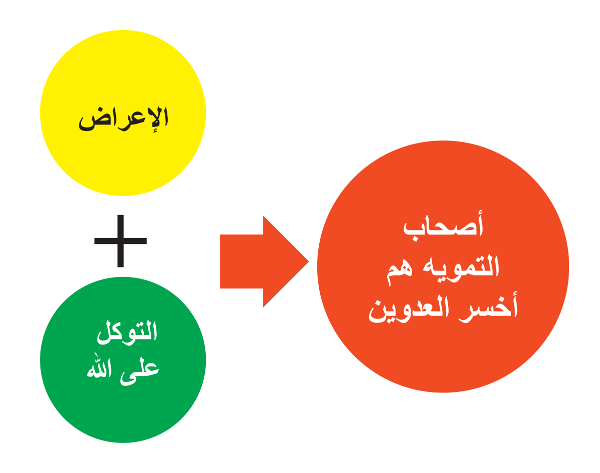
الطاعة وعملهم عصيان الأوامر، ويتظاهرون بالمعية والنصرة، وعلاقتهم بالأعداء أشد وثاقا، والقرآن الكريم في عرضه لطريقة تفكيرهم وصريح آرائهم يأمر الأمة بالإعراض عن هؤلاء وعدم التعرض لهم لكونهم أخسر العدُوَّيْن ؛ قال تعالى : ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ [296]، وقال : ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾ [297]

واستراتيجية التمويه تتخذ في عصرنا أبعادًا أكثر خطرا، ولكنها مفضوحة بسبب سرعة التقلبات السياسية في زماننا ؛ فأصحاب المبادئ هم الأقوى دائما ؛ لأن حبل الخداع والكذب قصير في زمن صار العالم ينظر إلى الحلول الصادقة بعين الاحترام، والبشرية التي صارت اليوم مرهقة بالمشاكل المتراكمة لا تتحمل أعباء المواقف المزدوجة ، وهذه الأمة بما تملك من رصيد أخلاقي عظيم قادرة على إعطاء الحلول للعالم بكل صدق وشجاعة.

حقيقة استراتيجية التمويه



تعامل القرآن مع أصحاب التمويه



---

296)- سورة النساء ؛ الآية : 81 .

297)- سورة النساء ؛ الآية : 141 .

14 . الوصف المخالف للتشريع :

وهو من طرائق التفكير الذي يعكس ثقافة المخالف الناقد لما في تشريع الله عزوجل في القرآن، ولكنه رأي له كل الحرية في الإبانة بمنظور القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى عن الذين حرموا ما أحل الله عزوجل: ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾ [298] ؛ فسمى تحليلهم وتحريمهم وصفا للإشارة إلى الرأي والتعبير الذي تفوّهوا به، وقال عن الذين ادعوا أن الله تعالى قد أمرهم بالفحشاء : ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ [299].

والوصف المخالف للتشريع رغم خطورته فهو مكفول في القرآن ؛ طالما أن أصحابه يفتقدون إلى لعلم والحجة، ويدخل هنا التعبير المناهض للإسلام بوصفه دينا سماويا سمحا ؛ فيطعنون في قدرته على تقديم الحلول الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ونرى أن حقهم في التعبير عن مواقفهم تجاه الإسلام مكفول بكل حرية، وما عليهم إلا الاستماع إلى هدي الإسلام وإعطاء الفرصة له ليبين لهم ما يجهلونه عنه .

298)- سورة الأنعام ؛ الآية : 139 .

299)- سورة الأعراف ؛ الآية : 28 .

أسباب الوصف المخالف للتشريع

انعدام العلم
انعدام الحجة
عدم الاستماع إلى هدي الإسلام

15 . قلب الحقائق :

وهو أول نوع من أنواع التعبير وإبداء الرأي سجله القرآن ؛ حيث بين موقف المنافقين الذين لا يرون في أفعالهم ومواقفهم فسادا يذكر ؛ بل يرون أنفسهم صالحين ومصلحين ؛ قال تعالى : ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾[300]، وسفَّه القرآن رأيهم هذا بإعلان فسادهم فقال تعالى : ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ [301] .

وفضحَ موقفهم تجاه أهل الإيمان حينما اعتبروا أهل الإيمان سفهاء ينأون بأنفسهم عن اتباعهم ؛ فقال تعالى : ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا

300)- سورة البقرة ؛ الآية : 11.

301)- سورة البقرة ؛ الآية : 12.

﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ [302]، وسفَّه القرآن رأيهم بإعلان سفاهتهم في موقفهم هذا ؛ فقال تعالى : ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ [303].

والقرآن الكريم بتسجيله لرأي المنافقين لا يرى بأسا بذكر رأيهم لسهولة الرد عليه، ولأن الحق الذي تملكه الأمة الإسلامية هو حق لا يضعفه رأي المخالفين المتطرفين، ومحاولة قلب الحقائق بإعلان الرأي المخالف هي محاولة خطيرة جدا، ولكن القرآن الكريم فسح لها المجال للظهور بطريقة حضارية لا نظير لها في أرقى المجتمعات المتطورة في مجال حقوق الإنسان في عصرنا.

(حرية التعبير
بين الحق المكفول وعواقب التطرف)

الخاتمة:

لقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من الآراء الحرة يطول حصرها والوقوف عليها في هذا المقام، وحسبنا أننا وقفنا عند حرية التفكير والتعبير في القرآن الكريم من خلال وقفات تساير المصطلح الديمقراطي للرأي الحر، والقرآن الكريم عندما يفسح المجال لكل طرائق التعبير ويعلنها كما صدرت عن أصحابها على اختلاف درجات تطرفها؛ فإنه يعلِّمنا أن حق الكلام مكفول لكل البشر على اختلاف أديانهم وأجناسهم ومبادئهم، وهو بذلك يسمح لأصحاب التعبير أن يظهروا في الصورة التي تكشف طريقة تفكيرهم التي بها يحاسبهم التاريخ بعد ذلك، ولا يسمح لنا بكبت الناس وإسكاتهم بالقوة ؛ لأن الكبت والإسكات لا يُظهران عظمة الحق أمام عقلية الباطل الساذجة، ويزيد الحق خفاء والتباسا عند الناس، والقرآن الكريم بما يحمله من حق عظيم لا يخشى على هذا الحق من آراء الناس المختلفة ؛ مهما تكن طرائقهم في التفكير والتعبير.

---

302)- سورة البقرة ؛ الآية : 13.

303)-سورة البقرة ؛ الآية السابقة.

تحقيق الحكم الديمقراطي من خلال التوجيه القرآني

لاحظ أن اتجاه حركة حرية التفكير موازٍ لاتجاه حركة التجانس بين السلطة والمعارضة ؛ لأنهما قوتان تصنعان التكامل داخل الدول .

وعلى الأمة الإسلامية اليوم أن تأخذ بعين الاعتبار خطورة المرحلة التي تمر بها ؛ فهي بحاجة إلى أبنائها في صفها قبل فوات الأوان ؛ لأن الخطاب الجماهيري أثبت إفلاسه في عصرنا وخاصة في أيامنا هذه .

وكما لا يمكن القضاء على الرأي الحر مهما يكن نوعه (انظر تصنيف القرآن له) ؛ فإن التوقع بتراجع أصحاب الرأي المتطرف عن رأيهم لمجرد أننا راعينا فيهم الحقوق قد لا يعد كافيا ؛ بل على الأمة أن تعمل على زرع الاطمئنان والأمل في النفوس ، ونرى أن الخطر القادم سيكون أثره صغيرا إذا ما أخلصنا العمل لوجه الله تعالى .

والله هو الموفق وله الحمد دائما.